القنـــــــــاع

أ.د . عدنان طهماسبى

علي حمزلان

المقدمة :

شهد المجتمع المصري خاصة و العربي عامة ، بعد حملة نابليون على مصر ، تصدعاً مفصلياً ، إذ انقسمت النخبةُ إلى فريقين ، بعضهم وقف مع التراث ، وعادى آخرون ما جائت به حملة نابليون . إذ يرى هؤلاء في المستورد الفرنسي خاصة والخارجي عامة ما هو يعادي الموروث العربي الاسلامي ، فيما تبنّى البعض الآخر الأهداف الثقافية التي رافقت هذه الحملة ، حيث انفتحوا من خلالها - رغم تهميش قيمهم الموروثة - على أساليب جديدة في الحياة ، وأصروا على تقليد الغرب كي تنهض بلادهم ، ويتخلصوا من الجهل المطبق عليهم ، وفي هذا الخضم ، ومن خلال ظهور جيلٍ جديدٍ متخرج من المدارس والمؤسسات الخارجية والعربية ، ومناداتهم بفكرة (النبذ والقبول) ؛ نبذ ما وصفته بالمضر ، و قبول ما كانت ترى فيه خيراً لهم وللامّة الاسلامية ، و بذلک يمكن أن نقول أنّه ، بظهور هذا الجيل الواعي ، الذي إنتقى من الموروث و الجديد ، استطاعت الدول العربية والشعب العربي الاسلامي ، أن يرفع هامته مرّة أخرى ، ويستعيد أمجاد الماضي الغابر .

و قد ظهر من بين هؤلاء ، على الساحة الأدبية ، رجلٌ اسمه (علي أحمد سعيد) الملقب بـ (أدونيس) ، لينتقي لنا ما يرى فيه خيرَ الماضي ، مستلهماً الحاضر والمستقبل ، من خلال شخصيات رأى فيها الخير ، مستدعيا شخصيات معروفة ، ليتنفس من خلالها همومه ، و هموم الأمة ، و يذكرنا بها كي لا ننسلخ من هويتنا ، إذا أردنا أن نعيش حياة كريمة ، وبذلک نحيا بها إذ اشرأبت نفوس الأمة بهم ، و باستدعاء شخصيات كالإمام الحسين (ع) ؛ هذا الرجل الفذ ، و الأبي على مر التاريخ .

ينبهنا (أدونيس) و أمثاله على عدم الركوع أمام الغازي المستهتر بقيمنا ، و العابث بسنن الله ، التي لن تفقد حيويتها مطلقا .

جائت هذه الكلمات لتقول - للقراء الكرام - أنّ مفعول التراث النابض ، ما زال حياً ، ليغذي حياة الأمة ، فتعيش حياة كريمة.

1-إستدعاءالشخصيات أوالقناع

يعرّف المعجم قناع المؤلف أوما يعرف بـ (persom) ، بأنّه من أصل الكلمة اللاتينية ذاتها ، وقد كان يطلق على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء تمثيل المسرحية ، أما في النقد الادبي ، فيُستعمل لفظ القناع للدلالة على شخصية المتكلم ، أو الراوي ، وقد يكون في أغلب الأحيان هو المؤلف نفسه.

ويذهب الدارسون الى أنّ القناع يمثّل (شخصية تاريخية في الغالب) يختبىء ورائها الشاعر ليعّبر عن موقف يريده ، أو ليحاكم نقائض العصر الحديث من خلالها [1] ، ويزيد بعضهم توظيف القناع تعبيراً عن هموم الشاعر ، وتجربته الفكرية ، أو يعمد على خلق شخصية جديدة تتقمص تلك الإنشغالات والهموم[2].

أما في ما يتعلق بالشعر العربي فنستطيع القول بأنّ ظاهرة توظيف الرمز الشعري أو (القناع) آخذة في التنامي والإزدياد ، ولم تعد القصيدة كما كانت عليه تقريرية ، تعتمد على فكرة المطابقة ، ومحاكات الواقع بل تجاوزت مرحلة التعبير بالرمز والإيحاء. أما أهم الرموز الّتى تتضمنها ، فنستطيع حصرها فيما يأتي : 1- الرمز التاريخي 2- الرمز اللغوي 3- الرمز الإسطوري 4- الرمز المكاني[3] .

وقد إستطاع شكل القصيدة القناعية الجديدة ،أن يؤثر على حركة الشعر العربي المعاصر وأن يدخل دائرة إهتمام بعض الشعراء والنقاد العرب المعاصرين الّذين إندفعوا إليها بدافع ما تميّزت به القصيدة الحرة من إنفتاح لإستيعاب مجالات وظائفية متعددة وفتحت مثاقفات شعراء العرب عند نماذج قصائد الأقنعة ، المجال الرحب لإنتشار هذا الشكل الشعري والتعبيري الجديد.

ولقد مرّت عملية قصيدة القناع شكلاً ومضموناً عند شعراء العرب بسلسلة متصلة من المحاولات و التجارب الشعرية ، أولها تلك المحاولة الّتي إعتمدت خلق قصيدة التوحّد مع الرمز ، على نحو ما نجده في قصيدتين لــ (بدر شاكر السياب) الّذي كان أول من أخذ شكل التوحد مع الرمز في قصيدتيه (تموز جيكور) و(المسيح بعد الصّلب) .

وكانت الريادة في هذا المجال الإبداعي لــ (عبد الوهاب البياتي) الّذي يعد أول من مارس كتابة قصيدة القناع ، وخَلَقَ شخصياته المقنّعة[4].

أما (أدونيس) فقد إستعان عبر تجربته الشعرية الطويلة بالإسطورة ، بإعتبارها أداة فعالة تستطيع أن تستوعب شعوره ومعاناته. فلم يكتف الشاعر بالخروج عن الوزن والقافية أو التوقف عند التجديد الشكلي و الثورة عليه بل نجده يجتهد دائماً للبحث عن مصادرالأساطير ، لتشكل له بذلك إنعطافة كبرى ، رؤية خاصة به ، وترتب على ذلك البحث عن رموز ، وأساطير ، وأقنعة ، يجسّد فيها ومن خلالها ، رؤياه و يمنحها شكلاً ملموساً ، لذلك إستقرّ على أنّ التراث العربي الإسلامي غنيّ برموزه ودلالاته وإشاراته ، ولهذا نجده يتوغل في التراث العربي الاسلامي توغلاً كبيراً ، لينسج منه بعد ذلك قصائد مشبّعة برموز النفري والحلاج ، والإمام الحسين (عليه السلام) ، وعبد الرحمن الداخل ، وغيرهم [5]. وأن تقنُّع أدونيس

بهذه الشخصيات المختلفة دفعه الى إقحام كلمة (قناع) في سياقات معبّرة عن دلالات نفسية مختلفة مثل قوله في قصيدة (مرآة الحجاج) :

بالسهام وبالقناع

لا بالصوت والكلام .

وفي قصيدة (قناع الأغنيات) يقول:

خلف هذا القناع الطويل من الأغنيات .

وفي قصيدة (الإله الميت) يقول:

اليوم طرحت قناع البيت.

وفي قصيدة (الوطن) يقول:

للوجوه التى تتيبّس تحت قناع الكآبة

أنحني لدروبٍ نسيت عليها دموعي .

وفي مقطع من قصيدة (القوقعة):

مَرَّ في أهدابنا وجه المدينة

ضائعاً تحت جليد الأقنعة[6]

ويصل (أدونيس) إلى ذروة التعبير الباطني عن ضرورات تكوين الأقنعة وإحتياجاتها ، موضّحا السبب في توظيف القناع ، والذي يختزل الغياب والحضورالزمني بكل إشكالياته وشخوصه وأزمنته وأمكنته ، داخل زمن القصيدة الشعرية ، حين يقول في قصيدة (بابل) :

نَتَلَمّسُ أقنعة التكوين

ونحضن أزمنة مكسورة[7].

2- ألإمام الحسين (عليه السلام) في شعر (أدونيس)

الحسين سرّالكون والوجود ، إنّه قداسة الطهر، مُلهم الشعراء بمختلف الأذواق والأطياف ، وما بَقِيَ شاعر لم ينهل من عبق شهادته أسمى قوافي العشق على مذبح الشهادة .

أما شاعرنا أدونيس ، فقد ذكره أربعة عشرة مرّة ، حيث يعد الحسين (ع) من أهم الشخصيات الدينية والتراثية في شعر ادونيس ، وسنكتفي بذكر ثلاثة قصائد هي : (مرآة الرأس و مرآة لمسجد الحسين و مرآة الشاهد) . ففي هذه القصائد الثلاث القصيرة المنشورة في كتاب (المسرح والمرايا 1968) ، يستعرض (أدونيس) إحتراماً عميقاً لجسد الحسين بن علي (عليه السلام) الذي يحدوه بالتبجيل ، ينسجم هذا مع تمثل

الحسين في الرمزية العربية الحديثة . لقد جاء ليشارك موقعاً إفتدائياً ، يختص تموز المسيح كفضيلة لحياته والنوايا والكلمات المنسوبة إليه من قِبَل تراجم الشيعة .

الولاء للحسين ورفضه للظلم أثارالخلاف ، لأنّه يمثّل الرّفض للحل الوسط مع الطغيان ، يرحّب بالموت ، ويقاسي العذاب وألألم من أجل عقائده .

إنّ موت الحسين على أيدي الأمويين ، له ما يوازيه في صَلب المسيح على أيدي الرومان ، بوصيّةٍ من المجلس ألأعلى اليهودي (SANHDRIN). وما هو شبّق في جسد شهيد كربلاء ، إنّه لايبالي بالمصائب مهما عصفت به، وهذا حافز قوي وفعّال ، وكذالک صدىً لرفض (أدونيس) الخاص للقيم العربية التقليدية ، وآماله المتجددة لمستقبل أكثر عدلا[8]. يقول أدونيس في قصيدة (مرآة الشاهد) :

وحينما إستقرت الرماح في حشاشة الحسين

وإزّينت بجسد الحسين

وداست الخيول كل نقطة من جسد الحسين

وأسـتُلِبَت وقُسِمَت ملابس الحسين

رأيت كل حجر يحنو على الحسين

رأيت كل زهرة تنام عند كتف الحسين

رأيت كل نهر يسير في جنازة الحسين[9].

إنّه شاهد عيان على الشهادة التي لن تجد أزدراءً من قِبَل معتقدي الشيعة. إنّ روحية الحسين وطلبه للخير قد إستقبلت الرماح العنيفة ، لالشئ إلّا لطلب الخير وإحياء الدين .

إستحضر(أدونيس) مراسم الندب في عاشوراء ، بترداد إسم الحسين الذي يدوّي كدويّ النحل ، وينهال إبتهالا بنحيب يفجّرعلى قلبه ما في قرارة نفسه ، ثاقباً كل فكرة ، كما أنّ (أدونيس) يقول في مقطع من قصيدة (الرأس والنهر) عن رأس مقطوع :

سار أمامي جسدي

أزمنة مدائناً تواكب النهر[10].

من الواضح أنّ الرأس الذي هو موضع التسا ؤل ، والذي يخدمه جسد الحسين الممزّق ، يترجم الجواب. ومن المهم ايضاً أنّ نؤكد على رفض الحسين الأبيّ وتخليده في خيال الإنسان في رجع صداه لدى أوطان العرب و غير العرب منذ أكثر من (1300) عام على شهادته ، وفى الواقع يمكن تكييفه مع أي كفاح للتحرر من الحرمان ، و سخط المجتمع الرافض والمرفوض كمثل حال الشيعة في لبنان و في العراق[11].

إذن شخصية الحسين تأخذ موقعا متمايزا في مسيرة الشهادة تاريخيا وفنيا ، وتحضر كربلاء كرمز للاسى والجرح و الحزن[12] . فقد حاول (أدونيس) من خلال هذه القصيدة (مرآة الشاهد) أن يقول : إنّ النص الشعري لديه تناص مع الحادثة التاريخية التي تروي مقتل الحسين و خذلانه من قبل مؤيديه ، و ينقل لنا أجواء الجنازة حيث راحت كل الأشياء تشارك في هذا الموقف : الحجر، السماء، النهر الذي يجسد موقف التعاطف معه، وهذه الحادثة ما هي إلّا تعبير عن الخيانة والقتل وتلاشي المروئة والفضيلة. فقد حاول (أدونيس) أن يجعل من ثورة الحسين رمزاً للموت والانبعاث وذلك إنّ إحساس الغضب والالم هو حافز للناس على الثورة . كما إنّ فلسفة (أدونيس) تقوم على التهديم الكلي ، فهو لا يؤمن بالإصلاح في هذه الدنيا ، بل يدعو الى التهديم الكلي ، ليؤسس بناءً جديدا ، و يدعوا لمحو الأشياء ليعيد تكوينها .

3- مهيار الدمشقي :

في أغاني مهيارالدمشقي يبتكر (أدونيس) شخصية أسطورية خاصة به. هي شخصية مهيار الدمشقي التي تنطلق بدأ من أزمة الشاعر كفرد يعيش في القرن العشرين ، و يعاني على مستوى ثان تجربة التحول و التحرك التي يعيشها العربي كما يعاني على المستوى الثالث ، أزمة الانسان ، إذ يواجه المعضلات الكونية.

وهكذا تتلاقى هذه المستويات المتعددة لازمة شخصية (مهيار) فمهيار، ذوهوية متعددة ، متحركة ، مسافرة، خصيصة لانهاء البحث الدائم لانهاء هوية ، تتكوّن و تتكامل ، لذلك إنّ المناخ الذي يسود (أغاني مهيار الدمشقي) هو مناخ التكوّن ، ثمة شئ ما على شفا التكون أو على شفا الزوال . فمهيار يرصد حركتين متسالبتين :حركة الولادة و حركة الموت[13].

منذ أغاني مهيار الدمشقي بدأت كلمة الرفض سيرورتها في الشعر العربي المعاصر والنسق الذي يسود القصائد جميعها هونسق التكوّن . فأغاني مهيار الدمشقي تتميز كمضمون و كلهجة من الشعر العربي الحديث الذي تغلب عليه الكلاسيكية ، بمعنى وصف الثابت.

يقول (أدونيس) في (أغاني مهيار الدمشقي) : فيه تأسست القصيدة القصيرة التي تحتضن العناصر الفكرية بالاضافة الى العناصر التخييلية. والحنين في أغاني مهيار الدمشقي ليس رجوعا الى ماض تاريخي ، إنّه الحنين الى زمن غائب و شهوة للقبض على حقيقة معذبة ، أبدية الحركة و التحول ، فإنّ هذا الكتاب يعكس أغاني الرفض (و إنّ الرفض هو إنجيلي) ، وفي محاولة التحرر والانتزاع من (أغاني مهيار الدمشقي) الى كتاب (كتاب التحولات و الهجرة في أقاليم الليل و النهار) ، تتسع الرؤى و ينجلي العنف ؛ وأحيانا لا نسمع الّا الصرخات التي تنادي الحريق و الطوفان[14] .

4- صقرقريش

صقر قريش هوعبدالرحمن الداخل الخليفة الأموي ، الذي فرّ من العباسيين الذين أرادوا أن يبطشوا به الى المغرب ثم الى الأندلس ، حيث أسس فيها بمساعدة أخواله دولة عربية اسلامية ، دامت ثماني قرون.

يروي لنا عبدالرحمن الداخل قصة هروبه مع أخيه حين وصلا نهر الفرات ، فسبحا ليعبراه إلى الضفة الأخرى. فهو يقول : وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط : أرجعا لا خوف عليكما. فسبحت وسبح الغلام أخي فإلتفتّ إليه لأقوّي من قلبه. فلم يسمعني وإغترّ بأمانهم وخشيَ فاستعجل الإنقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات. ثم قدّموا الصبي أخي الذي سار أليهم بأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاث عشرةَ سنة ، ومضيت الى وجهي ، أحسب إنيّ طائر وأنا ساع على قدمي[15] .

وهكذا فُجعَ الصقر بقتل أخيه ، كما فُجعَ بسقوط مجد قومه الأموي ، وفي هذا الأفق الجدلي الحزين ، تقترن الارض التي فتحتها الكتابة بالارض التي سوف يفتحها الصقر، وتوحّد الكونين على أرض باطنية تكشف أعماق الذات والعالم (أندلس الاعماق) .

فسحر الفتح وإرادة بعث الحياة ، تقتضي توحّد الذوات و الفضاءات ، لذلك تنهض مقابل الأرض العقيم : الجنادب ، الرمل ، النخيل ، الموت ، نضوب المياه ، زهر يابس أرض من أعماق الذات ، تعشق التحوّل ، تتطلّع الى النبوءة ، وإبتداع الغريب والمغايرة ، مصعدةً بذلك التوتر ، وفى الموطن ، يكتشف الجوهر الأصيل في جسارة الصقر ، وفعله المعجز. إذ تحمّل الجراح وقهَرَ الأهوال ، نذرا لإبتهاج آت ، وحلم مستقبلي ، أدركه فعلاً[16].

وذلك هو المسار الذي تترسمه الكتابه في سعيها المحموم لتأسيس كتابة مغايرة محوّلة ومتحوّلة. تمارس الحفر في الوجدان الفردي والإجتماعي ، وتتوق الى فهم لغات الأشياء : العشب ، النخيل ، الأ فق ، هكذا تتنوّع التفاعلات وتتصل ، وفي هذا الكون التخييلي المصغّر ، يبعث الأخ المقتول ، وتُنفخ فيه (الذات) من روحها ما يعينه على مواصلة الإستبطان والإتحاد بالينابيع .

ومن هنا تحمل الذات همّ التبشير ، بالتحوّل الخصب ، والتحكم في الأنوار، إنّ الحلم الواقع الغائب هو إحدى علامات البُشرى الموعودة، إذ بالدم تُفتح البوادي والمدائن .

يفنى الصقر ، لكنّه يسلّم مشعل المغامرة والفتح المستقبلي الى (الذوات) التوائم ، أي الى الصقورالتي تحرقها الصبوة ، ويمزّقها الحنين الى الإشراق ، وفي هذا الموكب الجنائزي ، تتعالى الأصوات مجتمعة ومنفصلة ، وتتلاشى (الذوات) أمام المشهد المرعب لحظة الفقد ، إنّه إنتكاس يقتل العقل ، يُقطع رأس الأخ الذي قهره الخوف ، فولّى مخدوعاً بأمان الأعداء ، إنّها فدية التردد ونقض عهد العبور .

وأمام هذه الفاجعة تنخرط الطبيعة في نعي الفقيد . فترتفع عندئذ بطولته إلى مرتبة المثال الذي ترسم (أنا) الكتابة المأخوذة بهوس الفتح :

عاشق يعشق قلبي

ويغني أغنياتي[17]

إنّه إغراء الصفاء والطهر، رغبة التوحّد بالأرض ، يتحوّل في بوتقته نهر العبور الى رفيق مصاحب كما تصبح بشائر الرؤيا مريرة :

تتبعني عينان في مجامر السنين

تتبعني الأشجار والرايات[18]

إلّا أنّ بطلنا لم يفقد أمله بفقد أخيه ، فإنّ الأمل راسخ فى قلبه رسوخ الجبال ، وكأنّي به أبى إلّا أن يخلّد إسمه في التاريخ ، ويؤسس دولة تماثل دولة أبائه ، بل تفوقها في المجد ، لنستمع إلى الأبيات التي نعى بها أخاه :

غنيت عن روض وقصر شاهق

بالقفروالإيطان في السرادق

فقل لمن نام على النمارق

إنّ العُلى شُدّت بهمٍ طارق

فاركب إليها شبح المضايق

أولى فأنت أرذل الخلائق[19]

وهكذا يستغني الصقر عن الروض والقصر الشاهق ، لأنّ نفسه الأبية ، تأبى الخنوع لمثل هذه الدنائات. لذلك يوجّه اللوم إلى كل من يرتضي بالذل والنوم على النمارق ، إذ يعلن أنّ علوّ الشأن والمجد والكرامة ، لا يمكن حصولها إلّا بشِقّ الأنفس وركوب الأهوال ، وإن لم يشد عزمه على مواجهة المصائب والتغلبّ عليها ، قبل أن تبطش به يكون أرذل ما خَلَقَ الله.

ومن يتهيّب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

لذلك قصد الخوض في تيار النهر الجارف العنيف دون لأي وتردد. إنّه النهر الذي إجتازه سباحة ، هربا من القتلة ، ليشيّد صرحاً من المجد والعُلى . فما أشبه عبور عبد الرحمن الداخل النهر بعبور (علي أحمد سعيد) الحدود السورية ، قاصداً لبنان ، ليبني مجده الأدبي والثقافي . فـ (أدونيس) (الإسطورة) بُعث حياً من النار والرماد ، أما عبد الرحمن الداخل ، فقد بُعث حياً من الماء وهو نقيض للنار.

أما القصيدة (تحولات الصقر) التي عالج بها (أدونيس) همومه وهموم الصقر ، فهي تُكشف من خلال الإنتقال بين الضفة والأخرى ، لاتترك مجالاً للغموض بين الأمس واليوم ، بين الماقبل والمابعد ، بين الهنا والهناك[20].

ومن المعروف أنّ لكل قصيدة على نحو ما أسطورتها الخاصة ، عبر الإشعاع القوي الذي تعكسه والآراء ، التي تقدم لتفسير ذلك الإشعاع ، مهما كانت حكيمة ، فإنّها تظلّ غير قادرة على إستيعابه إستيعاباً كاملا.

نجح أدونيس في تغييب نفسه والتاريخ في قصيدة (تحولات الصقر) ، ليخدم فكرة الشاعر، لأنّه كما يقول : ذو هويّة متحركة، مسافرة، لإنهاء البحث الدائم. لأنّها هويّة تتكوّن و تتكامل.

ومن الضفة الأخرى للنهر ، يقف عبد الرحمن الداخل ، ناطقا بعدما كادت السهام تصيبه ، وعنف التيار يجتاحه ، إنّه المهاجر الذي بُعث حياً ، فقد نجح في إختبار الماء ، مرتدياً الضوء ، خاصةً و أنّ الماء حمّال مركب الموتى ، لكنه أيضاً المطهّر، ففيه يتم العماد ، والوضوء.

إن صقر قريش وإن كان يتحدّر من أعماق الأرومة الأموية ، إلّا أنّ (أدونيس) لم ينص في قصائده التي إتّخذ فيها عبد الرحمن الأموي قناعاً ، وهي (الصقر وأيام الصقر وتحولات الصقر) على ما يتصل ببطش الأمويين ، وظلمهم ، وإنّما ينصّ على ما يتصل بالمغامرة ، والأمل ، والثورة ، وهي التي تتمثل في شخصية صقر قريش فـ (لأدونيس) نسق ثقافي متحرر ، وفي نفس الحال هو منقاد للثابت ، و هو متحرر منه ، فهو يأخذ من الهوية المرجعيّة للرمز التاريخي (قناعاً) ، دون الأخذ بعين الإعتبار الإنتماءات الأيديولوجية ، أو التاريخية فـ (أدونيس) - كما قلنا- يحّل في كل شخصية بإمكانها أن تتخذ قناعاً ، يعبّر من خلالها الشاعر عن خوالجه وهمومه ، وهي دون أدنى شك هموم أمته. فقصيدته الطويلة (تحولات الصقر-1962) كانت القصيدة الأولى التي تتناول مضموناً فكرياً ، مرتبطاً بالتاريخ العربي الاسلامي ، و قد وظّف فيها الشاعر صقر قريش الشخصية الثورية التي عشقت المغامرة ، فوحّدت العرب الذين كانوا قبائل وطوائف ، فصقر قريش في هذه القصيدة ، يجسّد تمزّق العرب وتفتتهم[21].

وربما لذلك تجنّب (أدونيس) ذكر بطش الأمويين (قوم عبد الرحمن الداخل) ، لأنّه رأى أنّ الصقر يمثّل تشرذم العرب ، أكثرمما يمثل ظلم قومه ، وهكذا إختار (أدونيس) شخصية الأمير الأموي الدمشقي المولد والمنشأ ، لتكون لسان حاله ، فهذا الأمير المخلوع ، والمطارد من قبل العباسيين ، هو الآخر مزيج غنيّ من الهويات والأمكنة ، وقد هَجَرَ الشام كما فعل (أدونيس) [22] .

لأندلس الأعماق

أندلس الطالع من دمشق

يحمل للغرب حصاد الشرق[23]

وفي كتابه (ها أنت أيها الوقت) يشبّه (أدونيس) عبوره الحدود السوريّة – اللبنانية عام (1965) ، بالذي عبر الفرات ، يقول مخاطباً نفسه :

ضفتان وأنت على الجسر الذي بينهما: ضفة ما ينبغي أن ينتهي ولكنّه لا ينتهي وضفة ما ينبغي أن يبدأ ولكنّه لا يبدأ.....

إنّها لحظة يتعذّر عليّ تقديرها. تلك اللحظة التي كانت كالجسر الذي حملني، ناقلاً حياتي من ضفة الى أُخرى، إذ بهذه اللحظة أيضاً يمكن أن تؤرّخ حياتي[24].

وإذا كانت الروايات التاريخية تخبرنا كيف هرب صقر قريش من الشام الى ألاندلس ، ليصبح على ضفاف الفرات عندما أفلتَ من قبضة الجنود العباسيين سباحةً الى الضفة الأخرى من الفرات ، ليبدأ مصيره الجديد ، فإنّ هذه الواقعة ستأخذ بعداً جديداً في شعر (أدونيس) عندما تنسلخ من زمانها التاريخي الى زمان الشاعر في شقّيه الإبداعي والذاتي ، ولاعجب أن يهدج صوت (أدونيس) ويدمع ، كلما قرأ المقطع الأتي من قصيدة (أيام الصقر):

وافراتاه ، كن لي جسراًوكن لي قناع

وتسرّبَتُ

غيّررنينک ياصوت

أسمع صوت الفرات

قريش.....

لؤلؤة تشعّ من دمشق

بخبئها الصندل واللبان

اَرَقُّ ما رقَّ له لبنان

أجمل ما حدّث عنه الشرق[25]

يعيش أدونيس المنبعث من النار مع صقر قريش المنبعث من الماء ، حالة من التداخل والتماهي ، تتجاوز الأمكنة والأزمنة ضمن فضاء القصيدة ، وتسقط عن المدينة أسوارها ، وتستبيحها بنار الشعر الهيراقليطية ، وبجنون الأحلام- الكوابيس ، فإذا بالشاعر يقول جرح المدينة الذي يرفض أبداً أن يغادره ، وفي حالة تشبه الهذيان يقوله بصورة مشهدية ، صارخة ، متفجرة ، هي بالتأكيد من قمم الشعر عند (أدونيس) . إليک بعض المقاطع :

هدأت صيحة الرجوع، أحلم يا دمشق

بالرعب في ضلال قاسيون

بالزمن الماضي بلا عيون

بالجسد اليابس، بالمقابر الخرساء

أصيح يا دمشق

موتي هنا وإحترقي وعودي

أصيح لا، موتي ولاتعودي

أيتها الطريدة المليئة الفخذين يا دمشق

وأمس في نومي يا دمشق

سوّيت تمثالاً من الصلصال

حفرتُ في خطوطه البيضاء

تاريخک الأسود يا دمشق

و رحتُ في رعب وفي إبتهال

أسقط كالزلزال

على روابي جَلَقَ الجميلة

أحضنها ، أضربها ، أغنّي هاها هلا هلال

وقلت لا فلتبق في حنيني

وفي دمعي دمشق

وقلت لا فلتحترق دمشق

وإستيقضت أعماقي القتيلة

مذعورة تصيح يا دمشق[26]

و (أدونيس) إذ يقسو على دمشق بلسان صقر قريش ، يعرف أيضاً كيف يعتذر منها ، ويقرّ بفضلها. فمن رحم تجربتها المرّة صنع صقر قريش مجده ، وتوهّجت نار الشعر في قصيدته :

يا حبّ ، لا.....عفوک يا دمشق

لولاک لم أهبط الى الأغوار

لم أهدم الأسوار

لم أعرف النار التي تنادي

تضّج في تاريخنا،تضيء

سفينة الكون الذي يجيء

عفوک يا دمشق

أيتها الخاطئة القدّيسة الخطايا[27]

لا ندري إذا ما إرتجفت يدا (أدونيس) وسال العرق من جبينه ، و هو يعطي دمشق جسد القصيدة وألقها في ديوان صقر قريش . لكن هذا الديوان هو التجارب الوجودية العميقة في مسار أدونيس الشعري التي ستترک أثرها ليس فقط على شعره ولكن على علاقته المستقبلية بدمشق[28].

بعد ديوان صقر قريش ستتحرر دمشق من الرموز الإسطورية التي تلتقي عندها جميع الحركات وتصدر عنها أغلب الأفعال.

قد مهّد (أدونيس) لقناعه بثلاث عشرة مقطوعة قبل الوصول الى القصيدتين اللتين إستخدم فيهما تقنية القناع ليحكي إسطورة الصقر:

يبني على الذروة في نهاية الأعماق

أندلس الأعماق

أندلس الطالع من دمشق[29]

إن تماهي (أدونيس) بصقر قريش مشهود بكل وضوح . فعلى الرغم من أنّ (أدونيس) في توظيفه صقر قريش الأموي يخالف مذهبه - كما قلنا سابقاً - فإنّ تماثل حياة الإثنين أوجب عليه هذا التوظيف ، فقد هرب (أدونيس) من بلاده لأنه كان مطلوباً فيها الى لبنان ، ليبني مجده الأدبي ، مات (علي أحمد سعيد) وبعث من رماده (أدونيس) كما مات الصقر على ضفة الفرات ، لكنّه بعث على ضفته الأخرى بعد صراع طويل مع تيار النهر الجارف والسهام المسددة نحوه ، ليحييَ مجد أجداده[30].

الهوامش

1. ينظر : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، ص145.
2. المصدر نفسه ، ص146.
3. ينظر : الحداثة في الشعر العربي، سعيد بن زرقة ، ص287.
4. ينظر: إتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس ، ص145.
5. ينظر : الحداثة في الشعر العربي، سعيد بن زرقة ، ص290.
6. ينظر : أغاني مهيار الدمشقى .
7. ينظر : أغاني مهيار الدمشقى .
8. ينظر : الحداثة في الشعر العربي، سعيد بن زرقة ، ص287.
9. الأعمال الكاملة، أدونيس ، 1970.
10. المصدر نفسه .
11. ينظر : مجلة الفصول – الأفق الأدونيسي ، ص 89.
12. ينظر : الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث - خالد الكركي –-ص183.
13. ينظر : حركية الإبداع، خالدة سعيد، ص178.
14. المصدر نفسه ، ص180.
15. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس ، 1970.
16. ينظر : زهرة الكيمياء، عبدالكريم حسن ، ص130.
17. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس، 1970.
18. انظر : الأعمال الكاملة، أدونيس، 1970.
19. ينظر : الأعمال الكاملة ، أدونيس ، 1970.
20. ينظر : مجلة الفصول، الأفق الأدونيسي ، ص91.
21. ينظر : بنية القصيدة القصيرة في شعرأدونيس ، على الشرع ، ص12.
22. ينظر : الحداثة فى الشعر العربي أدونيس : نموذجاً ، سعيد بن زرقة، ص136.
23. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، أدونيس .
24. كتاب : ها انت أيها الوقت، أدونيس .
25. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، أدونيس .
26. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، أدونيس.
27. المصدر نفسه .
28. ينظر : في بنية الشعر العربي المعاصر- محمد لطفي اليوسفي - ص125.
29. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، أدونيس.

30. كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، أدونيس ص126.

لمصادر

1. عباس، احسان، إتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطنى للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ط1، 1978.
2. ادونيس، أغاني مهيار الدمشقي، بيروت، دار الاداب، 1988.
3. مجلة الفصول، الأفق الأدونيسي، المجلد السادس عشر، العددالثاني خريف1997.
4. الكركى، خالد، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، ط1،1989.
5. سعيد، خالدة، حركية الإبداع، دار الفكر، ط3،1986.
6. ادونيس، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت،1970.
7. حسن، عبد الكريم، زهرة الكيمياء، دار الجيل، بيروت، مايو1989.
8. الشرع ، على، بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،1987.
9. بن زرقة، سعيد، الحداثة فى الشعر العربي أدونيس نموذجاً، دارالجيل، بيروت،1990.
10. اليوسفى، محمد لطفى، فى بنية الشعر العربى المعاصر، دار سراس، تونس، 1989.
11. ادونيس، كتاب التحولات و الهجرة فى اقاليم الليل و النهار، دار العودة، بيروت، ط2، 1971.
12. ادونيس، ها انت ايها الوقت، سيرة شعرية ثقافية، دار الآداب، بيروت، 1993.

الملخص

هناك دوافع وحوافز، تدفع الشعراء والأدباء بأن يتقمصوا شخصيات فراراً من البطش والكبت والإضطهاد القائم على رؤوسهم ، فبإستدعاء الشخصيات التى تقمصوا بها ، انفجرت على ألسنتهم وقلوبهم أشعار نادوا بها ضميرهم وضمير الأمة ، كي يفيقوا من سباتهم ، ويكسروا قضبان الزنزانات التي تحبس الكلمات والجسد ، منوّهين بمجدهم الغابر، برهاناً على وجود الأمة وتراثها العريق ، الذي طمستها عجرفة السطوة والسلطان .

Abstract

Persona I literature is one of the different tools of expression .it can represent the cruelty and injustice elaborates the society .it also can be considered as a bridge that connect the children of a nation to their own heritage and civilization so doubtlessly poet and literary scholars have been encouraged to use it as an expression way of pains and difficulties of the society .they also use historical characters to be safe against dictators.